صقر قريش و"شاهين" اقبال

* الدكتور سليم طارق خان

يتحدث سيد عابد على عابد في كتابه "شعر اقبال" عن وظيفة ناقد الأدب ويقول أن يجب عليه أن يلمس الارتباط بين الألفاظ والمعاني والشكل والمغزى وأهميته لدي شاعر يدرسه[١]. ويزيد عليه ناقلا عن "شبلي" أن للعرب اهتماماً بالألفاظ أكثر من المعاني وقد خرج على هذا المسلك عديد من الشعراء مثل المتنبي وابن رومي فإنهما يهتمان بالمعاني ويشغفان بجمالها[٢] على عكس ما ألفاه من أسلافهما الشعراء ويرى ابن رشيق مؤلف "العمدة" أن اللفظ جسد و روحه المعنى[٣] وإليه ذهب اقبال حيث قال في بعض شعره ما ترجمته الارتباط بين اللفظ والمعني مثل الاختلاط بين الجسد والروح. والمطابقة بين الألفاظ والمعاني ونسج اللباس على الأفكار ليس بالأمر الهين وقد لاتسع الألفاظ أفكارا وأخيلةً يتقدم بها الذهن الخلاق وقد يضيق الشعراء من أجل البحث عن الفاظ مناسبة لأفكارهم نظراً إلى القيود التي فرضت عليهم من اختيار البحر والتزام القافية والرديف فيضطر إلى ترك بعض أفكاره الجزئية ويتركز على تقديم الفكرة الأساسية إلا الذي أوتى حظا وافرا من الملكة الشعرية وقوة البيان فإنه ينجح في اختيار كلمات ومفردات تستوعب على كل ما يخطر بفكره، يقول سيد قطب في كتابه "النقد الأدبي": "وحينما كثرت التجارب والمشاهد

---

* الاستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة بهاولبور.

١- سيد عابد على عابد، شعر اقبال، بزم اقبال، شارع كلب، لاهور، ١٩٧٧م.

٢- ايضاً.

٣- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة، م.السعادة، مصر، ١٩٦٤م.

استغل الإنسان ذاكرته وخياله ووعيه فصار يكرر اللفظ الواحد كلما تكرر المشهد والتجربة وصار بصنف المشاهد والتجارب إلى أنواع ويتعلق على كل منها لفظا معينا يدل على النوع كله وبذلك يأخذ اللفظ معناه الذهني التجريدي[٤] كما يريد الشاعر أداء مضمون ورد عليه ويبداء البحث عن الألفاظ المناسبة يقع فكره على كلمات شتى وينظر في تاريخها ومارتها ومتعلقاتها ونسبتها والمعاني الأخرى التي تؤديها تلك الكلمات.

إقبال من هئولأ الشعراء الذين يُدرس شعر هم لا بخصائصه الفنية فحسب بل لأسلوبه وألفاظه المختارة والمطالب والمعاني وقد يتقرر لدي شاعر استعمال بعض الدلالات والاستعارات الفكرية وهي تقوم بربط ذهني بينه وبين قارئيه فيسهل عليهم إدراك ما أثبته الشاعر في إنتاجه.

وقد يجدد في هذه العلائم والرموز فتأتي بدلالات جديدة وإن كان هذا نادرا فيلزم للدارس حينئذٍ أن يتعارف مع مفاهيم قديمة لهذه الاستعارات والرموز.

يعد اقبال من الذين أحد ثوا صوراجديدة وعرف العلائم والرموز القديمة التقليدية على مفاهيم جديدة وبذا كانت لشعره ميزات تفصل بينه وبين معاصريه.

ومما إستفادبه إقبال في شعره' العلائم والاستعارات التي تتواجد في تراث الشعر العربي فإنه إستقى منه وأخذ بعض أخيلته وفكره فإن للأدب العربي القديم إسهاما لايقل عن الآداب العالمية الأخرى في تكوين فكر اقبال الفني' فيلمس الدارس تأثيرا واضحا للبيئة الصحراوية التي عاشتها العرب القديم في شعر اقبال' الذي ظهر عجمياً في جسده وعربيا في روحه من أجل هذا الاستقاء من منابع الشعر العربي القديم وقد أحسن به الشاعر نفسه حيث قال :

٤- سيد قطب' النقد الأدبي' بيروت. (ص ٣٤)

میرا ساز گرچہ ستم رسیدہ زخم ہائے عجم رہا
وہ شہید ذوق وفا ہوں میں کہ نوا مری عربی رہی

وقال في "شكوه"

عجمی خم ہے تو کیا مے تو حجازی ہے مری
نغمہ ہندی ہے تو کیا لَے تو حجازی ہے مری

ومما تواجد في شعره من مكونات البيئة الصحراوية القديمة للعرب، الظعن، القبيلة، جرس الرحيل، صوت الحادي، منظر الأطلال، محمل، قيس ليلى، وصف الصحراء، أزهارها و وحوشها، و من الناحية الفكرية إقبال يدعو إلى ثقافة محلها تلك الصحارى التي استعار منها ما سبق ذكرها وبها ارتقت و أرسلت أشعها التي أظلت على روما و إيران وعرفتهما وغيرهما على العلوم الإسلامية و الفنون العربية، و من أهم الاستعارات المتواجدة لدي إقبال "شاهين" ومأخذها تراث الشعر العربي وإن رأى بعض النقدة أنه استعارها من الأروباء وهو رأى مردود لما نراه يتنفر عن ثقافة الأروباء ويبرز عيوبها ثم إن "شاهين" في الأدب الأروبي رمز إلى الإفتراس والوحشية ولكن في الأدب الشرقي يستخدم "النمر" استعارة لهذه الصفات. والحال إن "شاهين" رمز في أدب الشرق إلى الغيرة والشجاعة والقناعة، وهذه المعاني نجدها لدي إقبال كما قال في أحد أبياته :

پرندوں کی دنیا کا درویش ہوں میں
کہ شاہین بناتا نہیں آشیانہ

يجب على الباحث أن يدرس استعارة "شاهين" عند اقبال في ضوء ما يعرف عنه من اقبال على مبادئ الإسلام وثقافة العرب وتاريخهم.

الشعر العربي مليئ بذكر الطيور والوحوش وخاصة الشعر الذي انتج في العهد الجاهلي لأنه منتج من الحروب بين القبائل فكان لمعاني الشجاعة والاقدام نصيب كبير منه ورمز إليها بما يتصف بهذه الصفات من طير أو وحش فنجد ذكر الفرس والإبل والأسد والنمر

شائعافيه وأكثرها شيوعا وأهمية هو الفرس لما أنه يؤدى دوراً أهم في مغامراتهم.

وقد أجاد أمرؤ القيس في وصفه وجاء في وصفه بأساليب متنوعة وجديدة حفظها تاريخ الشعر العربي الجاهلي، مع قدر كبير من الشعراء الآخرين. وجرت عادتهم على تشبيهه بعقاب وصقر في القوة وسرعة التحرك وهاهو أمرؤ القيس يصفه مشبها بالعقاب[٥]:

فعاديت منه بين ثور ونعجته
وكان عدائى اذ ركبت على بالى
كانى بفتخاء الجناحين لقوة
على عجل منها اطاطى شملالى
تخطف خزان الانيعم بالصنحى
قد حجرت منها ثعاليب اورال
كان قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى[٦]

وماهى أمثلة من معلقته أبدع فى وصف الفرس ونشاطه :

وقد أغتدى وَالطّيرُ في وُكناتها
بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبر معاً
كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من عَلِ[٧]

ولو عدنا إلى إقبال بعد دراسة هذه الأبيات تسجلى لنا حقيقة بارزة أنه استقى منها استقاءً ظاهرا كما في بيت من شعره.

جھپٹنا پلٹنا پلٹ کر جھپٹنا
لہو گرم رکھنے کا ہے اِک بہانہ

٥- امرؤ القيس، الشاعر المشهور فى العصر الجاهلي ومن اصحاب المعلقات.

٦- الاعلم الشنمرى، اشعار شعراء الستة الجاهليين (ص ٢٩).

٧- الزوزنى، شرح المعلقات السبع، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور.

وفي "ساقی نامه" جری فکره في أخذ مصراع أمری القیس، "کجلمود صخرٍ حطه السیل من عل "إلی شعره الأردی علی النمط التالي:

وہ جوئے کہستان اچکتی ہوئی، اٹکتی، لچکتی، سرکتی ہوئی
اچھلتی، پھسلتی، سنبھلتی ہوئی، بڑے پیچ کھا کر نکلتی ہوئی

وقد حول في هذه الأبيات وصف الفرس إلی وصف "شاهين" وأودع فيها روح الأدب العربي.

نجد ذکر العقاب في شعر خنساء[٨] أيضا وفي إحدی قصائد ها تصف مسابقة الجری بين والدها وأخيها و تشبههما بالعقاب :

وهما قد برزا كانهما
صقران قد حطا والی وكر[٩]

وهناك شاعر آخر من العصر الجاهلي حارث بن حلزة يذكر جيش النعمان ابن المنذر مشبها جنوده بالعقاب :

فنادت له قراضبته من
كل حی كانهم القاء[١٠]

"الرجل المؤمن" أهم عنصر فكري لشعر إقبال وهو يريده قائما بسيادة العالم ويتخيله متصفا بصفات الكرم والشجاعة والصدق والأمانة. والذي يفضل موت العزلی حياة الذل والذي يغير مجری التاريخ بنظرته الثاقبة ويستطيع استخراج الصدف من عمق البحر.

وقد يلمس دارس الأدب العربي القديم هذه الصفات المذكورة في شعر الحماسة والفخر لدي العرب. ويستعير لها شعرائهم رمز

٨- خنسا، من شاعرات العرب في الجاهلية وهی أسلمت وقد إستمع النبي صلی الله عليه وآله وسلم كلامها بالاشتياق. ديوان الخنساء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م.

٩- احمد حسن زيات، تاريخ ادب عربي، دارالثقافة، بيروت.

١٠- المعلقات السبع، معلقة حارث بن حمزه (ص ١٥٥).

العقاب والصقر وينبع اقبال من هذا المنبع الصافي لما يستعير رمز "شاهين" في شعره إلى "الرجل المؤمن" الذي يتحلى بما ذكر من الصفات. وثمة مصدر آخر لهذا التصور الفكري وهو من العرب أيضا، عرف في التاريخ الإسلامي بصقر قريش حيث استطاع أن ينقذ نفسه من أيدي العباسيين بعد زوال حكم بني امية ويقطع البر والبحر ويصل إلى بلاد الأندلس وفاز بسيادتها و لم يكن له جيش ولاجند إلاّ وهو عبدالرحمن الداخل (١١٣ه . ١٧٢ه)[١١]. ويقول اقبال عنه :

اگر کھو گیا اِک نشیمن تو کیا غم
مقاماتِ آہ و فغان اور بھی ہیں
قناعت نہ کر عالمِ رنگ و بو پر
چمن اور بھی آشیاں اور بھی ہیں

فالتاريخ الإسلامي في الأندلس من اهم مكونات الفكري لإقبال لأننا نرى أحوالها قبل ذهاب عبدالرحمن الداخل مشبهة بأحوال بلادشبه القارة زمن اقبال ونرى الداخل متصفا بصفات يحتويها شعر اقبال وهو يتمني هذه الصفات في "الرجل المؤمن" ويترقبه ليجمع شمل المسلمين الممزقة في شبه القارة يعني يؤدي نفس الدور الذي اداه الداخل في بلاد الأندلس، ويشير التاريخ الاسلامي إلى أن المسلمين كانوا يعرفون ب"HAWK" في الأندلس ومن هنايتبين مصدر تصور "شاهين" عند إقبال.

كان "وزكاث" حاكمى الأندلس قبل المسلمين وكان حكمهم تابعا لقيصر الروم وكان آخر ملوكهم "رادرك" وقد غصب الحكم من سابقه ظلما وحدث أن هتك ستر فتاةٍ لأحد حكامه وكان أولاد الحكام يتربون في قصور الملك طبق النظام فلما أخبرت تلك الفتاة "فلورندا" أباها بهذه الحادثة وكان حاكما على سبته وإسمه

١١- العلامة احمد المقرى المغربى المالكي، نفح الطيب، مطبعة عيسى البابي الحلبى وشركاه، مصر. (٢:٢٠٠)

"كاؤنت جولين"، فعزم على أن يعين المسلمين الذين كانوا يحاولون تلك الأيام الاستيلاء على الأندلس، و في نفس الأيام جرى اللقاء بينه وبين "رادرك" الملك الذي طلب منه أن يبحث له عن "العِقبان الصائدة" (HAWKS): هذا ما يتحدث عنه "لين بول".[١٢]

فعرف المسلمون من هنا بهذه التسمية لما أتوا بمعجزات باهرة وشجاعة قاهرة بنزول طارق بن زياد على ساحل الاندلس وهزيمة جيوش الملك "رادرك"، وإليه يشير المقرى في كتابه "نفخ الطيب" ويقول. "لما نزل طارق من الجبل كتب تدمير إلى لذريق، إنه قد نزل بأرضنا قوم لاندرى أمن السماء أم من الأرض".[١٣]

هذه بداية عهد المسلمين بالأندلس ولما جاء إليها عبدالرحمن الداخل واستطاع أن يجمع الأمر على يديه دون أن يحميه جيش أو يساعده جندٌ.

ازدار مأخذ تصور "شاهين" في شعر اقبال وضوحاً. لأن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك وكان جده أحد خلفاء بني أمية الذين سقط حكمهم على ايدي بني العباس والداخل ابن عشرين سنة قضى أربع سنوات مختفيا في افريقيا ثم عبّر البحر ونزل ساحل الأندلس سنة ١٢٨هـ ومعه أربعة من خدمه ولكنه فاز في تأسيس دولة اموية على إثر دولة ذاهبة وبنى مسجدا في قرطبة ورصافة وقصر الزهراء وغرس فيها شجرة نخل ليحي ذكر مسجد دمشق وقصورها ورصافتها ونخلها، وفي هذه الشجرة يقول الداخل :

تبدت لنا وسط الرصافة النخلة
تنائت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى في التغريب والنوى

١٢- Stanley Lane Pool, The Moors in Spain, Publishers United Ltd., Lahore.

١٣- المقرى، نفح الطيب، (٢:١٥٩).

وطـول التنـائى عـن نـبي وعـن أهلـي
نشـأت بـأرض أنـتِ فيهـا غريبـة
فمثلـك في التقصـاء والمنتـاي مثلـي
سقتك غوأى المزن مـن صوبهـا الـذي
يسح ويستمرى السماكين بـامولل[١٤]

وقد ترجـم أبياتـه إقبـال إلى الأردية فقـال :

میری آنکھ کا نور ہے تو　　میرے دل کا سرور ہے تُو
اپنی وادی سے دُور ہوں مَیں　　میرے لئے نخلِ طور ہے تُو
مغرب کی ہوا نے تجھ کو پالا　　صحراءِ عرب کی حُور ہے تُو
پردیس میں ناصبور ہوں مَیں　　دیس میں ناصبور ہے تُو

ویعبر بعد ترجمة أبيات الداخل عن محسوساته تجاه هذا الرجل العظيم حيث يقول :

عالم کا عجب ہے نظارہ　　دامانِ نگہ ہے پارہ پارہ
ہمت کو شناوری مبارک　　پیدا نہیں بحر کا کنارہ
ہے سوزِ دروں سے زندگانی　　اٹھتا نہیں خاک سے شرارہ
صبحِ غربت میں اور چمکا　　ٹوٹا ہوا شام کا ستارہ
مومن کے جہاں کی حد نہیں ہے　　مومن کا مقام ہر کہیں ہے

ويعم البيت الأخير كل من قام مقامه فى جمع أشتات الأمة الإسلامية وهذا الأمر كان من حاجات العصر زمن اقبال، فنستطيع أن نقطع بالقول إن فكرة "الرجل المؤمن" المتناولة في شعر اقبال والذي يستعير له ب "شاهين" مأخوذة من حياة عبدالرحمن الداخل الذي فعل فعل السحر في توحيد إمارات المسلمين في الأندلس على كلمة واحدة ونجح في تأسيس دولة أموية بعد أن سقطت دعائمها في الشرق على أيدي بني عباس وكان يلقب بصقر قريش بسبب هذا. كما يشير إليه دوزى قائلا :

١٤- ايضاً (٣:٧٧).

"سأل الخليفة المنصور (وهو معاصره) يوما وزراءه : "من من الملوك صقر قريش؟ فظنوا أن الخليفة يحب هذا اللقب لنفسه فقالوا. من غير أمير المؤمنين؟ فقال "لا قالوا" إذن معاوية بن ابى سفيان أو عبدالملك بن مروان فقال الخليفة : الأول عَبّر السبلَ له ابو بكر و عمر والثانى اجتمع لحمايته جيش عظيم أما صقر قريش فهو عبدالرحمن الداخل الذي فاز بالسيادة في بلاد غريبة وليس لديه جمع يساعده فإنه معتمدا على دمعائه الباهر هزم الاحزاب وحفظ الحدود و أسس دولة كبيرة و وحد الأمارات المتفرقة لها".[١٥]

و تحدث عنه المقرى في "نفخ الطيب" بما يأتي :

"أنه كان أصهب، خفيف العارضين. بوجهه خال، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفير تان اعور أخشم، والأخشم الذى لايشم، وكان يلقب بصقر قريش".[١٦]

وذكره اقبال في قصيدته الدعائية التى نظمها في مسجد قرطبة وعبر عن إعجابه بشجاعته وشهامته.[١٧]

تیرا جلال و جمال، مردِ خدا کی دلیل — وہ بھی جلیل و جمیل تو بھی جلیل و جمیل
تیری بنا پایدار، تیرے ستون بیشمار — شام کے صحرا میں ہو جیسے ہجوم نخیل
تیرے در و بام پر وادی ایمن کا نور — تیرا منار بلند جلوہ گہہ جبرئیل
مٹ نہیں سکتا کبھی مردِ مسلمان کہ ہے — جس کی اذانوں سے فاش سرِ کلیم و خلیل

١٥- وائين هارت دوزى، عبرت نامة اندلس (باللغة الاردوية) (ص ٣٦٢).
١٦- المقرى، نفح الطيب، (٣:٨٥).
١٧- ايضاً (٣:٧٧).

اس کی زمین بھی حدود، اس کا افق بے نجوم — اس کے سمندر کی موج دجلہ و دنیوب و نیل
اس کے زمانے عجیب اس کے فسانے غریب — عہد کہن کو دیا اس نے پیام رحیل
ساقی ارباب ذوق، فارس میدان شوق — بادہ ہے اس کا رحیق تیغ ہے اس کی اصیل
مرد سپاہی ہے وہ اس کی زرہ لا الہ — سایہ شمشیر میں اس کی پناہ لا الہ
تجھ سے ہوا آشکارا بندہ مومن کا راز — اس کے دلوں کی تپش شبوں کا گداز
اس کا مقام بلند اس کا خیال عظیم — اس کا سرور اس کا نیاز اس کا ناز
ہاتھ ہے اللہ کا بندہ مومن کا ہاتھ — غالب و کار آفریں کارکشا و کار ساز
خاکی و نوری نہاد بندہ مولا صفات — ہر دو جہاں سے غنی اس کا دل بے نیاز
اس کی امیدیں قلیل اس کے مقاصد جلیل — اس کی ادا دل فریب اس کی نگاہ دلنواز
نرم دم گفتگو گرم دم جستجو — رزم ہو یا بزم ہو پاک دل و پاک باز
نقطۂ پرکار حق مرد خدا کا یقین — اور یہ عالم تمام وہم و طلسم و مجاز

قدم اقبال شخصية الداخل في هذه القصيدة تتمثل فيه صفات يصف بها "الرجل المؤمن" و "رجل الله" و "الرجل المسلم" فإذن صقر قريش هذا أصبح رمزا لديه إلى الرجل المؤمن الذي يترقبه الشاعر ويتمنى أن يكون فتى الأسلام مثله. ثم التشبيهات التي ساقها في القصيدة مثل تشبيه مسجد قرطبة بمسجد دمشق وتشبيه قصر الزهراء بقصور بني امية في الشام وتشبيه أعمدة المسجد بقرطبة بأشجار النخل (و النخل العربي في الأصل) كل هذه الأشياء تلقى ضوءا على تأثير الأدب العربي وتاريخ الإسلام القوي في تكوين شعري لإقبال كما أنه تخيل في القصيدة تلك المحسوسات التي ربما كانت سائدة على قلب عبدالرحمن الداخل لما بداء بقرطبة في أمور ذكرنا ها، فكأن روح الداخل يتكلم الشاعر النظم، فالشاعر جعل شخصية الداخل شخصية عالمية تجاوزت الحدود الجغرافية ويلمس الدارس تطابقا بين أحوال وسيرة الداخل وصفاته وبين وصف اقبال لـ"الرجل المؤمن" و "فكرة شاهين" من حيث أنه القطع بقول إن من يتحدث عنه اقبال و يدعو فتية المسلمين إلى الإتصاف بصفاته، هو عبدالرحمن الداخل وفكرة

شاهين ليست فكرة شعرية فحسب بل إنما تدل على وعي الشاعر وإدراكه الكامل للتاريخ الإسلامي في أيام تشبه عصره، والأمة الإسلامية في عصره في حاجة إلى الداخل الثاني الذي يوحد كلمتها ويجمع شملها، فشاهين إقبال لايرضى بالذل والمسكنة ولايتهون بزوال الملك بل يقدم دائما إلى الأمام ويبحث عن عالم جديد بدل القديم. وهذه خلاصة فلسفة اقبال الشعرية وملامح الثقافة التى دعا إليها.